من أعلام الأندلس بالبلاط الزياني: أبا بكر بن خطاب المرسي

Andalusian figures in Zianid dynasty: Aba Bakr ibn Khattab Al-Morsi

محمد ناصري

جامعة سيدي بلعباس (الجزائر)، mohammedunivsba@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/04/13 تاريخ القبول: 2020/06/21 تاريخ النشر:2020/07/31

الملخص:

خلّف سقوط العديد من المدن الأندلسية خلال القرن السابع للهجرة تنامي ظاهرة الهجرة الأندلسية إلى المغرب الاسلامي فرارا من سيوف الاسبان، وهو ما شجع السلطة العبد الوادية لبذل مساعي في استقبال المهاجرين الأندلسيين الذين تنوعت شرائحهم الاجتماعية بين صناع وفلاحين ونخبة، هذه الأخيرة بما تميزت به من مستوى علمي عالي أهّلها لتولّي المناصب العليا في بلاط دولة بني عبد الواد، وفي إطار الحديث عن هجرة النخب لا يمكن أن نغض الطرف عن شخصية تمتعت بمؤهلات علمية برزت في مستوى الرسائل التي دونتها لسلاطين تلمسان. ونخص بالذكر أبا بكر بن داود بن خطاب الغافقي المرسي، كاتب يغمراسن وخليفته أبو سعيد عثمان، وهو ما سنحاول التطرق له في هذه المساهمة محاولين الترجمة لهذه الشخصية مع الكشف عن القيمة التاريخية للرسائل التي كتبها عن أمراء الدولة العبد الوادية.

الكلمات المفتاحية: أبو بكر بن خطاب؛ تلمسان؛ يغمراسن ؛ فصل الخطاب ؛ مرسية.

Abstract:

The fall of many Andalusian cities during the seventh century of Hegire caused the growth of the phenomenon of Andalusian migrations to the countries of the Maghreb, what encouraged the Abdelwadide authority to make efforts to receive Andalusian immigrants whose social classes varied between artisans, farmers and elites.

In the context of talking about the migration of elites, it is not possible to ignore a personality who has educational qualifications that have emerged by the level of the messages written to the sultans of Tlemcen. We mention in particular Aba Bakr ibn Dawood ibn Khattab Al-Ghafiqi Al-Mursi, the writer of Yaghmorassen and his successor Abu Saeed Othman. This is what we are trying to deal with in this contribution, attempting to talk about his life while revealing the historical value of the letters he wrote about the princes.

Keywords: Abou Bakr ibn Dawood ibn Khattab ; Tlemcen ; Yaghmorassen ; Fasl el khitab ; Morsia.

1. مقدمة:

شهد الغرب الاسلامي في النصف الأول من القرن السابع للهجرة الموافق للثالث عشر للميلاد تغيرات جذرية في الخارطة السياسية، عنوانها التفكك والحركات الانفصالية التي استغلت فرصة احتضار الدولة الموحدية لتبسط سلطانها على مناطق معينة حسب قوتها العسكرية وتحالفاتها مع القبائل، وهو ما كان له الأثر المباشر في العديد من الأحداث التي انجرت عنها، أبرزها سقوط العديد من المدن الأندلسية، فضلا عن قيام دول بدوية بالمغرب الاسلامي، وتحولات ديمغرافية نتيجة الهجرات البشرية من المدن الأندلسية المتهالكة.

نستحضر هذا الإطار العام للحديث عن المساعي التي بذلتها دولة بني عبد الواد في استقبال المهاجرين الأندلسيين الذين تنوعت شرائحهم الاجتماعية بين صناع وفلاحين ونخبة، هذه الأخيرة بما تميزت به من مستوى علمي عالي أهّلها لتولّي المناصب العليا في بلاط دولة بني عبد الواد.

وفي إطار الحديث عن هجرة النخب الأندلسية إلى المغرب الأوسط لا يمكننا أن نغض الطرف عن شخصية تمتعت بمؤهلات علمية برزت في مستوى الرسائل التي دونتها لسلاطين تلمسان. ونخص بالذكر أبا بكر بن داود بن خطاب الغافقي المرسي، كاتب يغمراسن وخليفته أبو سعيد عثمان، إذ لا يخفى لدى المطلع على ظروف قيام الدولة العبد الوادية أنها اتسمت بطابع بدوي مستمدّ من النمط القبلي بصفة عامة والزناتي بصفة خاصة، وذلك بشهادة عبد الرحمن بن خلدون الذي لم يتردد في وصف فتراتها الأولى بالدولة البدوية، ومؤسسها بالشيخ البدوي.

من هنا ندرك الخيط الناظم الكامن وراء حفاوة الاستقبال التي خصّصوها للمهاجرين الأندلسيين باختلاف صنائعهم، بالتالي فقد كانت تلمسان محظوظة باستقبال نخبة من هذا الطراز _ فمصائب قوم عند قوم فوائد _ باعتبار أن تدهور الأوضاع في الأندلس كان سببا مباشرا في هجرة أبي بكر بن خطاب إلى تلمسان. وهو ما سنحاول الحديث عنه في مداخلتنا هذه باعتباره صورة مشرقة من صور التكامل الثقافي بين المغرب الأوسط والأندلس، على أننا لن نكتفي بالتطرق إلى سيرته فقط بل سنتجاوزها إلى إبراز إسهاماته في كتابة الرسائل ليغمراسن وخليفته أبي سعيد عثمان، والتي من عوادي الزمن ويد التلف.

2. الأوضاع السياسية بالمغرب الأوسط من 675 إلى 683 هـ/ 1276-1284م:

شهد المغرب الأوسط خلال إقامة ابن خطاب به تواصل سلسلة الصراع العسكري المفتوح على جهات عدة داخلية وخارجية، ولعل أبرزها المنافسة الشرسة مع المرينيين، فبالرغم من انهزام يغمراسن[1] أمامهم في عدة معارك إلا أن عزيمته لم تكل ولم يهدأ له بال إلا بإشفاء غليله بشن حملات انتقامية على الأراضي المرينية، والتي كان يرى فيها سياسة ناجعة تروم إلى محاربة الغريم التقليدي كوسيلة للدفاع، وبذلك تحرك سنة 675هـ/1276م صوب حصن تاونت[2]، وهو من الحصون المهمة في الحدود بين الدولتين، ولأهميته شحنه أبو يوسف بالمؤونة تحسبا لاستخدامه في الصراع، فحاول يغمراسن السيطرة عليه عدة مرات حتى "فرّ من الحصن" حاكمه هارون ابن شيخ مطغرة[3].

كما لم يفوت أي فرصة للتحالف مع سلطات سياسية تشترك معه في سياسة العداء للمرينيين، فإذا كان هؤلاء قد أبلوا البلاء الحسن في الجهاد بالأندلس، فإن محمد الفقيه[4] أقلقته هذه المكانة التي حظي بها أبو يوسف لدى العامة، وهو ما جعله يتحالف مع يغمراسن حتى يشن عليهم حملات يلهيهم بها عن العبور للعدوة[5]، غير أن حملات النصارى اشتدت وطأتها على الأندلس، فاضطر محمد الفقيه إلى الإستنجاد مرة أخرى بالمرينيين، وكان يغمراسن ضحية هذا الاتفاق،ذلك أنهم"أطلعوه على خباء يغمراسن في مظاهرتهم"[6]، فتحرك إليه أبو يوسف المريني وتمكن من إلحاق هزيمة به بخرزوزة سنة 680هـ/1281م.

واصل أبو يوسف توغله في أراضي بني عبد الواد، وتحالف مع بني توجين[7] و"عاثوا جميعا في بلاده نهبا وتخريبا"[8]. وعقب هذا التحالف ، خرج يغمراسن إلى بلاد توجين وانتقم منهم بشنه عليهم عدة غارات[9]، كما جدد ضرباته العسكرية على تنس بشنه غارة عليها سنة 681هـ/1282م[10]، أما خلال عهد خليفته أبو سعيد عثمان فيبدو أن الأوضاع السياسية في السنة الأولى والثانية من حكمه كانت مستقرة حيث لم تسجل المصادر فيها أي مواجهة عسكرية أو غارة أو حملة تأديبية للقبائل باستثناء معركة ناجحة ضد بني توجين بعد توليه الحكم بأشهر قليلة[11].

3.التعريف بابن خطاب المرسي:

أ. ترجمته:

يكتنف الغموض سنة مولد ابن خطاب، فكل المصادر التي ترجمت له لم تتطرق لها، على أننا نجزم أنه ولد قبل سنة 640هـ/1242م وذلك باعتبار أن شيخه ابن محرز[12] انتقل لبجاية واستقر بها في هذه السنة[13] أما مسقط رأسه فلا يرقى الشك إلى أنه ولد بمدينة مرسية كما ذكر ذلك يحيى بن خلدون وابن مريم[14]وحتى لقبه المرسي ينهض دليلا على انحداره منها، على أن أهمّ قرينة دالّة على ذلك الوثيقة التي كتبها بخطه ونقلها العبدري في رحلته، يقول في مطلعها " لقيت من الشيوخ ببلدي مرسية أعادها الله تعالى للإسلام"[15]. تتلمذ بمرسية، ولم تكن له رحلات علمية خارج الأندلس، فكلّ المشايخ الذين نهل منهم ينحدرون من مدن أندلسية أو استقروا بها، وقرأ عليهم عدّة كتب كما ذكر في الوثيقة التي دونها، وهم كالتالي:

اسم الشيخ	العلم الذي درسه عنه	الكتاب الذي قرأه عليه	المصدروالصفحة
أبو بكر محمد بن محمد المعافري الشهير بالقرشي	اللغة العربية	/	العبدري، الرحلة المغربية، ص38.
أبو علي الحسن بن عبد الرحمن الكناني الشهير بالرفاء	اللغة العربية	مقامات الحريري، شعر المتنبي، ديوان الحماسة	العبدري، الرحلة المغربية، ص38.
أبو بكر محمد بن محرز الزهري	الفقه والحديث	التلقي للقاضي أبي محمد عبد الوهاب. موطأ الإمام مالك. سنن الترمذي سنن أبي داود السير	العبدري، الرحلة المغربية،ص38.
أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي		التلقيحات للسهروردي. مختصر المستصفى لابن رشد. التلقين	العبدري، الرحلة المغربية، صص38-39.
أبو عيسى محمد بن أبي السداد	الحديث	شمائل النبي صلى الله عليه وسلم. صحيح مسلم. سنن الترمذي	العبدري، الرحلة المغربية، ص39.
أبو بكر بن جهور الأزدي	الحديث	صحيح مسلم	العبدري، الرحلة المغربية، ص39.
أبو العباس الطرسوني	الفقه	/	العبدري، الرحلة المغربية، ص39.
أبو عبد الله السمار المؤدب	الفقه	/	العبدري، الرحلة المغربية، ص39.
أبو عبد الله بن فتح	الفقه	/	العبدري، الرحلة المغربية، ص39.
أبو عبد الله النجار	الفقه	/	العبدري، الرحلة المغربية، ص39.

ولم يقتصر تكوينه على تحصيل العلوم فقط بل توّجها بالسعي للحصول على إجازة تتيح له ممارسة التدريس، وقد كان له ذلك حيث أجازه الشيخ أبو الربيع سالم[16].

بعد هذا التكوين العلمي تمكّن أبو بكر بن خطاب من تكوين شخصيته العلمية وتحصيل مجموعة من العلوم النقلية، فقد برع في والفقه[17]وأصوله حتى عده ابن مريم " من أعرف الناس بأصول الفقه"[18]، كما برع في الشعر بدليل إيراد ابن الخطيب عدّة أبيات له تنمّ عن تحكم وبراعة في قرض الشعر بل منها ما نظمه في صباه وهو ما يرجح تمتعه بموهبة شعرية[19].

أما علم الكلام التي وصفه ابن الخطيب ببراعته فيه[20] فأمر صعب التصديق خصوصا في ظل غياب أي ذكر لهذا العلم في فهرسة المشيخة التي ذكرها، إلا ما ورد في مقدمات إحدى رسائله عبارة يمكن أن ترجّح ذلك حيث يقول فيها "ولدي من الاعتداد بجانبكم والابتهاج بسمو مراتبكم ما هو لي كالداتي الذي لا يرتفع في الوجودين ولا أنتقل عنه بالثقالي في الكيف والأين"[21].

على أن أبرز ما برع فيه كان الكتابة، حيث اشتهر بها فكل من ترجم له إلا ووصفه ببراعته فيها، من ذلك وصف عبد الرحمن بن خلدون له بأنه كان " مرسلا بليغا، وكاتبا مجيدا"[22]، ووصفه ابن مريم بأنه " من أبرع الكتاب خطا وأدبا"[23]، أما جامع رسائله فقد وصفه بأنه " شيخ المعارف والدراية وبقية أهل الإسناد في وقته والرواية، الفقيه الأجلّ، الكاتب الأبرع، المحدث المتقن المقرئ المتفنن...له فيها من اتساع الباع وارتفاع القدم والتقدم الذي لم يزل موصوفا به على القدم، ما أربى به على أهل عصره وبارى فيه من تقدم"[24].

أما التنسي فيبدو أنه انبهر بنثره وشعره خصوصا أنه كان أديبا، فجاء تقريضه له بعين المتخصص فبوأه مكانة سامية بوصفه على أنه " خاتمة أهل الآداب، المبرز في عصره على سائر الكتاب"[25] كما وصفه العبدري بـ "الفقيه الكاتب الأبرع"[26]وعلق على أبيات له بقوله " ناظمها رحمه الله متمكن الجلالة معروف الأصالة"[27].

ب. شخصيته:

أمدنا ابن الخطيب بمميزات سيكولوجية اتّصف بها أبو بكر بن خطاب المرسي، فقد ذكر أنه كان "شكس[28] الأخلاق، متقاطبا زاهيا بنفسه"[29]، وهي أوصاف تبيّن أنه كان سيئ الخلق ومعجبا بنفسه. وفي إطار البحث عن جذور تميزه بهذه الصفات لابد من العودة إلى البيئة التي نشأ فيها خصوصا من الناحية الاجتماعية، التي حصرها أحد الباحثين في الأسرة وذلك باعتبارها عاملا أساسيا في نشأته، ويرى من خلال مجموعة من تصرفات الوالدين مع طفلهما أنها تؤدي به إلى تقديره لذاته وتحوله إلى عجب، إضافة إلى التفوق في طلب العلم والتقدير من طرف شيوخه، وهي كلها عوامل لا تجعله مقدّرا لذاته بل تحوّله لمعجب بها[30].

ومن بين العوامل الاجتماعية المساعدة على ذلك تمتعه بسمعة محترمة بين أقرانه ومجتمعه فقد كان "معلوم القدر معظما عند الكافة"[31]. ويبدو أنّ مستوى الكتابة لديه ساهم بقدر كبير في تكوين هذا النمط الخلقي في شخصيته، فقد كان محتقرا لأقرانه من الكتاب، من ذلك أنه ردّ بتكبّر وعنف على زميله عمر اللوشي الذي غيّر عبارة " عفوة العفوة" إلى " صفوة الصفوة" في خطبة دونها الغافقي ظنّا أنها هفوة منه، فرد عليه بتمزيق ورقة الخطبة وتكسيره للقلم ونظر إليه بازدراء وقال له " لا أقيم بموضع بلغ فيه الجهل إلى هذا القدر، ويتسور به الإصلاح على قلم يطمع بعد في مقامه"[32]. وهي قرائن تجعلنا نفترض أن شخصيته كانت كلها نرجسية وغرورا.

إلا أنّ أبياته تدلّ على تحول نفسي طرأ عليه أواخر حياته، ويظلّ الباحث عاجزا عن إضاءة هذا الجانب المعتم بسبب قلة النصوص، وهو إشكال يبقى عالقا لا نملك أمامه سوى محاولة تفكيك ما لدينا من معلومات على ندرتها، ونرجّح أن إقالته من منصب الكتابة في حدود سنة 683هـ _ حسب أحد الباحثين _ له الأثر الكبير في تغيّر شخصيته

وجنوحه للزهد والتصوف، فقد عانى من صدمة نفسية، كيف لا وهو الذي أمضى أربعة عقود في بلاطات الأندلس وتلمسان، وكان شأنه عاليا لدرجة أنه رفض عرض المستنصر الحفصي بالعمل في بلاطه مقابل مبلغ مالي معتبر[33]، ويبقى سبب إقالته من منصبه بالبلاط العبد الوادي مجهولا، وتبرز بعض الأبيات شعورا يشتم منه رائحة تسلية النفس بضرورة الالتزام بالقناعة والرضى بما رزقت به[34].

ج. وظائفه في الأندلس:

تولى ابن خطاب وظيفة الكتابة لمدة تناهز الأربعين سنة في بلاطات الأندلس، فقد كانت بدايته من بلاط صاحب مرسية الأمير بهاء الدولة ابن هود، غير أن سنة انضمامه للبلاط تظل مجهولة، إلا أنه يمكن تحديدها في حدود سنة 637هـ أو قبلها بسنة، باعتبار الرسالة التي كتبها في السنة المذكورة والمتعلقة بإلغاء ضريبة الأعشار عن تجار منورقة[35]. واستمر في العمل لديه لينتقل إلى البلاط الغرناطي.

واحتفظ لنا جامع رسائله بالعديد منها مما كتبه لأمراء بني الأحمر[36] ليعود إلى البلاط المرسي في بداية السبعينيات من القرن السابع، إلا أن المقام لم يستسغ له بها بسبب الفتن التي أحاطت بها والضغط العسكري الأراغوني ليختار وجهة خارج العدوة الأندلسية صوب الدولة الفتية بتلمسان، وهو لاشك اختيار عفوي، إلا أنه كان في مصلحته خصوصا أمام حاجة الدولة إلى كتاب بارعين مثله تزين بهم بلاطها وتباهي به خصومها السياسيين شرقا وغربا.

د. ابن خطاب بتلمسان:

لم تكن هجرة ابن خطاب إلى تلمسان فردية وإنما ضمن مجموعة لم تتحمل الضغط التي عاشته الأندلس في القرن السابع، ويبدو أن الوفد الذي كان ضمنه ضم الوزير أبي بكر بن وضاح[37]، وقد ذكر في إحدى رسائله أنه سافر من مرسية إلى حصن منتيشة بعد المصاهرة التي تمت بين حاكم الحصن والوزير المذكور[38]، إلا أن الأوضاع به ازدادت سوءا بعد انفراط عقد الصلح مع بيدرو الثالث الذي حاصر الحصن وسيطر عليه، وأوكل عليه كاتبه ابن منيشة اليهودي الذي أمعن في إذلال ابن خطاب ومن معه وحجزهم، ولم يطلق سراحهم إلا بعدما دفعوا له ألف دينار، اضطروا فيها إلى بيع ألبستهم الفاخرة وكل ما غلا ثمنه من أمتعتهم حسب ما وصفه بحزن في رسالته " خلعنا بغرمها لبوس العزة وبعنا فيها ما كان لنا من الشارة الحسنة والبزة"[39].

وكان اختياره تلمسان وجهة عفويا، فقد صادف وجودهم بحصن منتيشة نزول رسول يغمراسن إلى بيدرو الثالث للاتفاق حول قضايا معينة لم يذكرها لنا، فكانت فرصة أحسن استغلالها ورافق مع الوفد الذي معه رسول يغمراسن ونزل بهنين ليمكث فيها بضعة أيام[40] ثم واصل طريقه إلى تلمسان.

باستثناء هذه الرواية على لسان صاحبها، تعوزنا معلومات أخرى تؤكد لنا عمّا إذا كان نزولا عفويا بتلمسان أم نتيجة دعوة واتفاق مسبق. أيّا كان الأمر فإن يغمراسن لم يدخر جهدا في استقبال كل أندلسي فارّ من الحرب والفتن. ويمكن القول أنه ثمة نوع من المصلحة المشتركة وقفت خلف هذا الاحتفاء، فالدولة العبد الوادية كانت بحاجة للخبرة الأندلسية خصوصا في المناصب الإدارية، ففضلا عن ابن خطاب فحتى الوزير ابن وضاح حظي بمكانة مرموقة في بلاط يغمراسن حسبما ذكر ابن خلدون من أنه " آثره وقرب مجلسه وأكرم نزله، وأحله من الخلة والشورى بمكان اصطفاه له"[41].

فهل يمكن القول حسب هذا النص الذي انفرد به ابن خلدون أن لابن وضاح الفضل الكبير في تقديم ابن خطاب ليغمراسن لأنه كان مستشارا له حسبما ورد؟ لا يمكن الجزم بأيّ منهما كان له الفضل في تقديم الآخر، خصوصا أن محقق رسائله الديوانية قد اطلع على رسالة اخوانية تفيد أن أبا بكر بن خطاب راسل ولي العهد أبا سعيد عثمان طالبا أن يدخل في خدمته[42].

مهما كان الأمر فقد كانت فرصة لأبي بكر لتبوّأ منصب دون منافسة من غريم. ولا يمكن الأخذ بأي حال من الأحوال برواية التنسي التي أرجع فيها هجرة ابن خطاب لتلمسان نتيجة الصيت الذائع لتقدير يغمراسن للعلماء، إنما هي دولة بدوية خاصة في مراحلها الأولى. والقول بسياسة أمير يسعى للتقرب من العلماء بتلك الصورة المبالغ فيها أمر لا يمكن تصديقه إذا اطلعنا بنظرة إحصائية للصراعات العسكرية التي خاضها في سبيل تثبيت أركان دولته وسط جو مشحون ومحاط بالطامعين والمعارضين لقيام دولة لبني عبد الواد، صحيح أنه سجلت له المصادر بعض المساعي لكن وجب وضعها في صورتها الحقيقية دون تضخيم.

4. القيمة التاريخية لرسائل أبي بكر بن خطاب الديوانية:

يتحسر الباحث في تاريخ الدولة الزيانية عن غياب النصوص حولها خاصة في بدايات الدولة التي عرفت الكثير من الأحداث السياسية، وإن كنا نعرف البعض منها، فإن الكثير قد غاب عنّا ولم يدوّن أو أنه دوّن وعبثت به عوادي الدهر، من ذلك حديث يحيى بن خلدون عن شن يغمراسن لاثني وسبعين غزوة في العرب وحدهم[43] دون بقية القبائل البربرية في حين لا نجد أية تفاصيل حولها.

من خلال هذه الندرة تبرز أهمية هذه الرسائل الديوانية باعتبار صاحبها كان موظفا في البلاد العبد الوادي ومطلعا على خبايا وحقائق عديدة لا نجد لها ذكرا في بقية المصادر، نذكر منها المعركة الناجحة لأبو سعيد عثمان ضد بني توجين سنة 681هـ/1282م ويبدو أنها كانت أول مواجهة عسكرية في فترة حكمه.

وقد انفرد ابن خطاب بالإشارة لهذه المعركة والتي كانت موضوعا للرسالة التي وجهها إلى السلطان الحفصي أبي فارس يستشيره فيها بخصوص قبول أو رفض إذعان محمد بن عبد القوي عقب هزيمته وإرساله لابنه سيد الناس لعقد الصلح مع أبي سعيد عثمان، ومما جاء فيها ما يلي " وذلكم أن محمد بن عبد القوي لمّا فرغنا من هزيمته، ورجعنا من غنيمته، بعث إلينا إثر ذلكم لمصالحتنا طالبا، وفي مهادنتنا راغبا"[44]. وهذه المعركة لم تذكرها المصادر التي أرخت للدولة الزيانية، فما أحصيناه أن أول معركة خاضها أبو سعيد عثمان كانت ضد مغراوة[45] ببرشك سنة 684هـ/1285م [46].

جدير بالذكر أن موضوع الرسالة كتبت منه نسختين، الأولى لم يذكر فيها ابن خطاب انتصار أبو سعيد عثمان على محمد بن عبد القوي التوجيني، ويبدو أنها كانت هفوة منه لم يستسغها أبو سعيد عثمان حيث طلب منه إعادة كتابة الرسالة وتوضيح أن رغبة بني توجين في المصالحة كانت نتيجة لهزيمته لهم وليس خضوعا عفويا[47].

كما احتفظ لنا برسائل عن وشائج القربى وعلاقات المصاهرة التي انعقدت بين أبو سعيد عثمان وابنة السلطان الحفصي أبي إسحاق إبراهيم، من ذلك الرسالة التي كتبها عن الأمير أبي زكريا ابن السلطان الحفصي أبي إسحاق والذي كان متواجدا بتلمسان لزيارة أخته على ما يبدو، وهي عبارة عن تهنئة لعمه السلطان أبي حفص بعد قضاءه على الدعي ابن أبي عمارة[48].

وإن ذكرت مصادر التاريخ العام فالكثير منها يدكون في إشارات عابرة دون تفاصيل وافية أكثر. من ذلك تبعية الدولة العبد الوادية للدولة الحفصية في عهد يغمراسن وخليفته أبو سعيد عثمان، فقد احتفظت لنا رسائله بالعديد من النصوص التي تؤكد ذلك. نذكر منها رسالة تتضمن بيعة يغمراسن للواثق الحفصي مدونة بتاريخ 7 محرم 677هـ/ 31 ماي 1278م جاء فيها " ولمّا ورد على يغمراسن بن زيان بتلمسان-حرسها الله- خبر هذه البيعة الذي صار يوم وُصوله للأيّام سيّداً، وردّدته الألسنة لهجا فطاب وخفّ على الأسماع مُعاداً مُردّداً، وتأرّجت الأرجاء بذكراه، ولم ينصدع ليلُ الحَبْر أسعد غُرّة من بشراه، لبّى مناديها حين قال: يا، وبادرَ إلى الدّخول فيها بدار من يعتقد الدّخول فيها للخيرات منْميا، وفي الدنيا والآخرة مُنْجيا، ودعا إليها من قبَله من الأبناء والقرابة وبني عبد الواد والوزراء والأعيان والفقهاء، والصّدور والصلحاء، فأجابوا إلى ذلك وأصفقُوا عليه فيمن أصفقْ، ورأوه أوفق لهم في معاشهم ومعادهم أرفقْ فبايعوه جميعا"[49].

ورسالة أخرى تتضمن بيعة أبو سعيد عثمان للسلطان الحفصي أبي إسحاق[50]مؤرخة في سنة 681هـ/1282م أقرّ فيها بوجوب طاعة السلطان الحفصي ومما جاء فيها " وإلى هذا - وصل الله تأييدكم- فإنّ العبْد وجّهَ مخاطبته هذه إلى الباب الكريم – أيّده الله- لرسم خدمته مُقيما، وبشعار العبودية مُعْلما وكفى به وسْما وسيماً" [51].

إلا أن ما يثير التساؤل في هذه البيعات أنها تكررت في عهد يغمراسن وخليفته أبي سعيد عثمان، وهذا ما يوحي بنوع من الشك والريبة من البلاط الحفصي في حقيقة هذا الولاء، لأنه حقيقة كان اعترافا شكليا، فنجد على سبيل المثال أن يغمراسن كتب ثلاث رسائل لأبي إسحاق الحفصي، الأولى تتضمن اعترافه به وتأكيد ولاءه للسلطة الحفصية حيث ورد فيها " وإلى هذا، فإن العبد أصدر هذه الخدمة إلى حضرة مولاه-أيدها الله- سالكا من الانضواء إليها سبيلا تؤديه إلى السعادة، ومقررا من الإخلاص في خدمتها ما يهيئه لقبول ما يفيض عليه من نيراتها الوقادة"[52].

إضافة إلى رسالة أخرى بنفس الموضوع، حيث جدد فيها مرة أخرى ولاءه للسلطان أبي إسحاق، ويبدو أن هذا الأمر راجع إلى تقليد مفاده أن بعد قضاء السلطان الحفصي على كل ثورة أو تمرد على السلطة إلا ويجدد له أتباعه ولاءهم تبديدا للشكوك، لأن في هذه الفترة التي كتبت فيها الرسائل قضى فيها السلطان الحفصي على ثورة ابن الوزير بقسنطينة. وقد كتب ابن خطاب عن يغمراسن رسالة هنأه فيها بانتصاره عليه[53]، ونجد أيضا رسالة ثالثة جاء فيها " وإلى هذا، فإن العبد أصدر مخاطبته هذه إلى الباب الكريم بخدمته مقررا، ولعهدها السالف مذكرا"[54].

كما تتضمن إشارات هامة حول العلاقات بين الأندلس وتلمسان، ولعل أهمها الظهير الذي كتبه ابن خطاب عن السلطان يغمراسن، رحّب فيه بالجالية الأندلسية للاستقرار بتلمسان واعدا إياهم بتوفير ما قدر عليه من إمكانيات، حيث جاء فيه " هذا ظهير عناية مديد الظلال، وكرامة رحيبة المجال، وحماية لا يخشى على عقدها المبرم وعهدها المحكم من الانحلال والاختلال، أمر به الأمير أبي يحيى يغمراسن بن زيان أيد الله أمره، وأبد عصره، لجميع أهل الأندلس المستوطنين بحضرة تلمسان حرسها الله، أحلهم به من رعيه الجميل أكنافا، وبوأهم من اهتمامه الكريم جنات ألفافا"[55].

وثمة رسائل أخرى تبيّن العلاقة الوطيدة التي جمعت بين السلطة العبد الوادية وسلطة بني الأحمر بغرناطة. منها الرسالة التي ردّ فيها على أمير الدولة النصرية بعد تعزية هذا الأخير برسالة في وفاة يغمراسن. وتفوح الرسالة بعبارات المودّة والصداقة حيث جاء في بعضها " وإخاؤكم الكريم عقده وثيق، ووجهه سافر أنيق، والوفاء بأذمته المؤكدة لا يسلك غير طريقه طريق، ولا يتخذ غير فريقه فريق...ولئن كنتم فقدتم محل والد لقد أبقى لكم منا محل أخ معاضد، في كافة الأحوال مساعد، يقاسمكم في الحلو والمر"[56].

وفي رسالة ودية تبين عن أسلوب آخر لتوطيد العلاقات الوطيدة بين تلمسان وغرناطة وهو التهادي. ففي بداية حكم عثمان بن يغمراسن أرسل مجموعة من التحف إلى الأمير النصري أبو عبد الله محمد الفقيه جاء ضمنها ما يلي "فبعثنا إليكم مع فلان موصل هذا إليكم-حفظه الله- من تحف هذا الموضع الذي هو من بلادكم معدود، وإلى حكمكم مردود...ولو أن الهدية تكون بقدر المهدى إليه لقلت لقدركم الجليل الدنيا، ولم نجد نفيسا يليق بتلكم الإمارة العليا"[57].

5. خاتمة:

في الأخير يمكننا القول بناء على ما تقدم أن أبا بكر بن خطاب هو أديب أندلسي معتد بنفسه واثق في مقدراته بما حصله من علم واجتهاد وسعي حثيث للتميز. ورغم تعكّر الأوضاع السياسية بالأندلس إلا أنه تمكن من شق طريق صعب المسالك وعر الدروب وأمضى ما ينيف عن أربعة عقود متنقلا فيها بين بلاطات الأندلس والمغرب الأوسط. ورغم الشدائد التي قاساها على المستوى الشخصي إلا أن ذلك لم يؤثر على مستواه العلمي حيث أبان عن مهارة فائقة في الكتابة وأصبحت رسائله نموذجا يحتذى به بدليل أن جامع رسائله لم يقدم على ذلك إلا بناء على طلب الوزير النصري أبي عبد الله ابن الحكيم الرندي الذي يبدو أنه أعجب به، وهي رسائل ذات قيمة تاريخية باعتبارها احتفظت لنا بالعديد من المعلومات التي من شأنها أن ترمم الثلمات في سور الحادثة التاريخية، ولعل الصورة ستتضح أكثر لو امتدت يد العناية إلى رسائله الإخوانية التي لا تزال مخطوطة في انتظار من ينتشلها من غياهب الإهمال ويقدمها لجمهور الباحثين في تاريخ المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، لأنها تحفل بالكثير من التفاصيل عن ظروف هجرته لتلمسان فضلا عن ملامح سيكولوجية لأديب كان كالنحلة التي تنتقل من زهرة لزهرة لتمتص الرحيق وتقدم لنا عسلا، فكان عطاءه عسلا أدبيا ممثلا في رسائله الديوانية والإخوانية.

6.الهوامش :

1-مؤسس الدولة العبد الوادية، ولد سنة 603هـ/1206م ، تولى ولاية تلمسان عقب مقتل أخيه أبي عزة زكرار بن زيان سنة 633هـ/1235م حيث أعلن عن قيام الدولة، تميز يغمراسن بشخصية قوية كما وصفها ابن خلدون. أما من اتهمه بالجبن خصوصا المصادر المرينية المغرضة فليس لنا إلا أن نكرر لها رأي أحد الباحثين من أن "اتهام يغمراسن بالجبن على وجه الخصوص تهمة رخيصة يدحضها الحق والواقع". عبد الرحمن ابن خلدون،العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج7،مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2000.، صص105-106. خالد بلعربي، تلمسان من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الزيانية، دار الألمعية، الجزائر، 2011، ص216.

2- حصن يقع على ساحل مدينة ترنانا، شيد على جبل يحيط البحر به من ثلاث جهات، أما الوصول إليه فلا يكون إلا من الناحية الشرقية، وهو بذلك معقل حصين، والجبل الذي شيد فيه يحتوي على معدن الأثمد، ورغم تشييده قبل القرن الخامس إلا أنه بقي خلال الفترة مدار الدرس، تتميز هذه المنطقة بارتفاعها وهو ما جعلها محل صراع على السيطرة عليها من الزيانيين والمرينيين. تغير اسمها مع الزمن من تاونت إلى تيانت. أبو عبيد البكري،المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن، أندري فيري، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1992.، ص750.

3-عبد الرحمن ابن خلدون،المصدر السابق،ج7، ص245.

4- محمد بن محمد بن يوسف النصري، لقب بمحمد الفقيه، تولى الوزارة في عهد والده ثم خلفه بعد وفاته، فهو ثاني حكام الدولة النصرية، امتدت فترة حكمه بين 671-701هـ/1238-1272م. لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق وتعليق محمد زينهم، الدار الثقافية للنشر، د.ت،ص34. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج4، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، ص234.

5- عبد ابن خلدون، المصدر السابق،ج7، ص119.

6- نفسه،ج7، ص283.

7- ينتمون لبطن بني بادين، وينقسمون إلى فرعين وهما بنو مدن وبنو رسوغين انحصرت مجالاتهم بوادي شلف والونشريس، ثم سيطروا على وبسائط السرسو بعد تغلبهم على بنو وجديجن ومطماطة، تتفرع إلى عدة بطون على غرار بنو يدللتن التي تعد من أقوى بطونها، بنو قمري، بنو مادون، بنو زنداك، بنو وسيل، بنو قاضي، بنو مامت، تعود جذور صراعهم العسكري مع بني عبد الواد منذ العهد الموحدي، كما

تغلبوا على مغراوة وسيطروا على العديد من مجالاتها، مثل منداس والجعبات وتاوغزوت. عبد الرحمن بن خلدون، نفسه، ج7، صص205-208.

8- نفسه، ج7، ص270.

9- نفسه ،ج7،ص117.

10- نفسه ،ج7،ص118.

11-مؤلف مجهول، فصل الخطاب في ترسيل أبي بكر بن الخطاب، تحقيق أحمد عزاوي، مطبعة الرباط نيت، الرباط، 2008، صص114-115.

12-أبو بكر محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن سليمان بن محمد الزهري، لقب بابن محرز، ولد سنة 569هـ/1173م ببلنسية، تتلمذ على يد عدة شيوخ على غرار والده وخالاه أبو بكر وأبو عامر، مما يعطي صورة عن انتمائه لبيت علم، كما تتلمذ على أبو عبد الله محمد بن خلف بن مرزوق وأبو العطاء وهرب بن لب وأبو الخطاب بن واجب وغيرهم، برع في الفقه والحديث واللغة والأدب، له تقييد على كتاب التلقين، توفي ببجاية سنة 655هـ/ 1258م. الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء بعد المائة السابعة ببجاية، تحقيق وتعليق عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1979،صص284-287.

13-نفسه، ص286.

14-يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة، الجزائر، 2011، ص168.ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد بن يوسف القاضي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2010، ص303.

15-محمد العبدري البلنسي، الرحلة المغربية، تقديم سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، 2007، ص38.

16-يحيى بن خلدون، نفسه، ج1، ص168. لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1974، ص427.

17- لسان الدين بن الخطيب، نفسه، ج2، ص426.

18-ابن مريم، المصدر السابق، ص303.

19-ابن الخطيب، المصدر السابق، ج2، صص 428-431.

20-نفسه، ج2، ص426.

21-مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص101.

22-عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص106.

23-ابن مريم، المصدر السابق، ص303.

24-مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص3.

25- التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، تحقيق وتعليق محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص127.

26-محمد العبدري البلنسي، المصدر السابق، ص37.

27-نفسه، ص37.

28-هو السيئ الخلق، وقيل السيئ الخلق في المبايعة وغيرها. ابن منظور، لسان العرب، ج6، دار صادر، بيروت، د.س، ص112.

29-ابن الخطيب، المصدر السابق، ج2، صص426-427.

30- حميد الحداد، التاريخ والنفسانيات، مطبعة شمس برينت، سلا، 2019، ص108.

31- ابن الخطيب،المصدر السابق، ج2، ص426.

32-نفسه، ج2، ص427.

33-نفسه، ج2، ص427.

34-نذكر منها الأبيات التالية:

اقنع بما أوتيته تنل الغنا وإذا دهتك ملمة فتصبر

واعلم بأن الرزق مقسوم فلو رمنا زيادة ذرة لم نقدر

والله أرحم بالعباد فلا تسل أحدا تعش عيش الكرام وتؤجر. ابن الخطيب، نفسه، ج2، ص428.

35-مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص38. أحمد عزاوي، الغرب الإسلامي خلال القرنين 7 و8هـ، ج1، مطبعة الرباط نيت، الرباط، 2006، ص272.

36-مؤلف مجهول، نفسه، ص، ص، 27، 42، 45، 48، 50، 51، 53، 55، 66، 70، 78، 81، 84، 86، 90، 93، 95، 98.

37-عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص106.

38-مؤلف مجهول، المصدر السابق، صص102-102.

39- نفسه، صص104-105.

40-نفسه، ص105.

41-عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص106.

42- جدير بالذكر أن رسائل أبو بكر بن خطاب الإخوانية لا تزال مخطوطة ولم تحقق بعد وما نقله المحقق أحمد عزاوي كان من إحداها وأورد هذه المعلومة في الهامش رقم 3. أنظر فصل الخطاب، ص105.

43-يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص228.

44-مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص114.

45-ينسبون إلى مغراو بن يصلتين بن زاكيا بن ورسيك بن ألديرت، تنقسم إلى عدة بطون على غرار بني يليث، وبني زنداك، بني ورا، الأغواط،،بنو نلت، بنو مائدة، بنو تيغرين،وهران. تمتد مجالاتهم من منطقة شلف إلى تلمسان إضافة إلى جبل مديونة في حين وسعها أحد الباحثين إلى وادي ملوية. أسست عدة إمارات خلال العصر الوسيط، وهو ما يفسر الصراع الذي دخلت فيه مع بني عبد الواد. عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص33.علي بن محمد بن الخطيب القريشي التلمساني، كتاب نسب زغبة ومنتهى أصلهم، تحقيق طيب بوجمعة نعيمة، النشر الجامعي الجديد، تلمسان، 2019، ص120.. بوزياني الدراجي، القبائل الأمازيغية، ج1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007، ص، ص272، 279.

46-ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص133.

47-مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص112.

48-نفسه، ص128.

49- نفسه، صص134-135.

50-تولى الحكم لمدة ثلاث سنوات بين 678-681هـ/1279-1282م

51-مؤلف مجهول، نفسه، ص141.

52-نفسه، ص136.

53-نفسه، ص120.

54-نفسه، ص139.

55-نفسه، ص159.

56- نفسه، ص163.

57-نفسه، ص166.